



عندما قررت موسكو السوفياتية التدخل في أفغانستان عام 1979، كانت حكومة الرئيس حفظ الله أمين تسسيطر على أكثر من ثلثي مساحة أفغانستان، وكان «المجاهدون» المتوارون في المناطق النائية والجليلية عبارة عن مجموعات صغيرة غير مدربة تمتلك عتاداً بسيطاً.

ولكن بعد التدخل الروسي في أفغانستان، حصلت هذه المجموعات على دعم عسكري من جهات دولية مختلفة وقفـت بوجهـ هذا الغزو، الأمر الذي ساعد على خوض حرب عصابات استنزفت أضخم قوة عسكرية بـرية في حقبـة الحرب الباردة. فانتقل «المجاهدون» من مرحلة الدفاع إلى الهجوم، حيث تم فرض واقع ميداني لصالـحـهم.

وفي بداية النصف الثاني من ثمانينات القرن الماضي تمكـنـوا من تقلـيقـ السيطرـةـ السوفياتـيةـ إلى 20% فقط من الأراضـيـ الأفـغـانـيةـ. والـليـوـمـ فيـ الـوقـتـ الذـيـ بدـأـتـ تـصـلـ فيـهـ طـلـائـعـ مشـاةـ الـبـحـرـيـةـ الـرـوـسـيـةـ وـخـبـراءـ الدـفـاعـ الجـوـيـ الـرـوـسـيـ إـلـىـ منـاطـقـ السـاحـلـ السـوـرـيـ، تـنـفـيـداـ لـقـرـارـ اـسـتـراتـيـجيـ اـتـخـذـهـ الـكـرـمـلـيـنـ بـالـتـدـخـلـ الـمـيـدـانـيـ الـمـباـشـرـ فيـ الـحـرـبـ السـوـرـيـ، وـصـلـ حـجمـ المسـاحـةـ الجـغـرافـيـةـ الـتـيـ يـسـيـطـرـ عـلـيـهاـ رـئـيـسـ النـظـامـ السـوـرـيـ بـشارـ الأـسـدـ إـلـىـ ماـ دونـ 20%.

كـماـ بـاتـ بـعـدـ أـرـبعـ سـنـوـاتـ عـلـىـ الـحـرـبـ مـحـاـصـرـاـ فـيـ دـمـشـقـ، قـوـاتـهـ منـهـكـةـ تـدـافـعـ عـنـ عـقـرـ دـارـهـ فـيـ الـمـنـاطـقـ الـمـوـالـيـةـ لـهـ، بـعـدـ أـنـ وـصـلـ الـثـوـارـ إـلـىـ تـخـومـهـاـ مـنـ عـدـةـ جـهـاتـ.

وـأـصـبـحـ الأـسـدـ وـنـظـامـهـ يـعـتمـدـانـ كـلـيـاـ عـلـىـ مـيـلـيشـيـاتـ أـجـنبـيـةـ تـحـمـيـهـ مـنـ السـقـوطـ. أـمـاـ فـصـائـلـ الـمـعـارـضـةـ فـأـضـحـتـ، رـغمـ شـحـ الـمـسـاعـدـاتـ وـكـثـرـةـ الـتـدـخـلـاتـ الـخـارـجـيـةـ، أـكـثـرـ خـبـرـةـ وـأـفـضـلـ تـنـظـيمـاـ.

الـتـرـاجـعـ الـمـيـدـانـيـ لـقـوـاتـ الـأـسـدـ، وـالـتـخـوـفـ مـنـ سـقـوطـ مـفـاجـئـ أوـ اـنـتـكـاسـةـ عـسـكـرـيـةـ، سـيـنـارـيوـهـاتـ تـزـيدـ وـضـعـهـ تـعـقـيـداـ، وـهـيـ عـوـاـمـلـ فـرـضـتـ عـلـىـ الـقـيـادـةـ الـرـوـسـيـةـ التـدـخـلـ السـرـيعـ مـنـ أـجـلـ إـعادـةـ التـواـزنـ لـقـوـاتـهـ.

فـلـمـ يـعـدـ مـسـتـبعـداـ مـشـارـكـةـ طـيـارـيـنـ روـسـ محـترـفـيـنـ فـيـ القـتـالـ الجـوـيـ، وـاستـخـدـامـ طـائـراـتـهـمـ الـحـدـيثـةـ ذاتـ الـقـدـراتـ التـدمـيرـيـةـ العـالـيـةـ لـيـسـ مـنـ أـجـلـ مـحـارـبـةـ «ـدـاعـشـ»ـ كـمـاـ تـدـعـيـ الـخـارـجـيـةـ الـرـوـسـيـةـ، بلـ لـمـنـعـ تـقدـمـ الـمـعـارـضـةـ.

وـمـنـ شـأنـ تـدـخـلـ مـمـاثـلـ أـنـ يـتـسـبـبـ بـتـرجـيـحـ كـفـةـ الـأـسـدـ عـلـىـ الـأـرـضـ، وـقـدـ تـسـتـغـلـ مـوـسـكـوـ فـرـصـةـ بـحـجـةـ الـمـسـاعـدـةـ فـيـ الـحـرـبـ عـلـىـ الـإـرـهـابـ لـتـقـومـ بـضـرـبـ كـافـيـةـ فـصـائـلـ الـمـعـارـضـةـ السـوـرـيـةـ.

إلا أنَّ الدول الداعمة للمعارضة لن تسمح بأمر مماثل، ما قد يدفعهم إلى زيادة الضغط على واشنطن للسماح بتزويد المعارضة بصواريخ أرض - جو أو مضادات أرضية، بالإضافة إلى زيادة الدعم النوعي لوقف الإخلال بالموازين بين المعارضة والنظام.

فخطوات الكرملين التصعيدية في سوريا، بهذا الشكل والحجم، هي خروج عن تعهادات ضمنية بين أطراف النزاع الدولي على سوريا؛ إذ سبق أن اتفقت هذه الأطراف على الالتزام بمستوى الدعم العسكري للقوى المتصارعة على الأرض السورية: في مقابل عدم تزويد الغرب المعارضة بصواريخ مضادة للطائرات، كان على موسكو الالتزام بعدم حصول الأسد على أسلحة أكثر فتكاً وذات قدرة أكبر على التدمير تساعد على حسم الصراع عسكرياً.

كما أنَّ اتفاقاً ضمنياً رسم حدود التدخل الخارجي على مستوى الخبراء والتدريب، ومنع إرسال وحدات قتالية رسمية للمشاركة في القتال.

لقد تحولت أفغانستان في منتصف ثمانينات القرن الماضي مكاناً لتصفية حسابات الحرب الباردة، بعد أن تبنت دول غربية وإقليمية وعربية مساعدة الثوار الأفغان، من أجل دحر الاحتلال السوفيافي.

وكان هذا الاحتلال في أفغانستان من عوامل تفكك الاتحاد السوفيافي خصوصاً بعد قرار الرئيس الأميركي الأسبق، رونالد ريغان، عام 1986 تزويد «المجاهدين الأفغان» بصواريخ «ستينغر» التي قلبت موازين القتال.

ولم يعد مستبعداً أن يلجأ الغرب إلى إدارة الأزمة في سوريا بدلاً من حسمها، ما قد يستدرج موسكو إلى المستنقع السوري من أجل استنزافها اقتصادياً وزيادة الأعباء على خزينتها المنكهة أصلاً.

وفي حال دخلت موسكو هذا المستنقع فمن شأن هذا الأمر تكبدها هزيمة عسكرية على الأرض والقضاء على آخر موطن قدم لها في شرق المتوسط.

والأهم أنَّ خطوة مماثلة ستدخل موسكو في مواجهة مفتوحة مع الغالبية الإسلامية في العالم التي باتت تحملها مسؤولية النكبة السورية، ما قد يجعل روسيا عرضة لردود فعل انتقامية من قبل الجماعات الإسلامية المتشددة.

على ما يبدو أنَّ سيد الكرملين يصرّ في سوريا على ارتكاب الخطأ نفسه الذي ارتكبه أسلافه السوفيات في أفغانستان، فيدفعه غرور القوة إلى عدم الاكتراش بالواقع التاريخية، فيمنعه في تحديه إلى وضع يده من جديد في نفس الجحر الذي لدغ السوفيات قبل عقود.

الشرق الأوسط

المصادر: